مقدمة

بقلم الدكتور عبدالقادر طاش

عندما بدأنا الإعداد لمشروع إصدار «البلاد - الجمعة» كان همّنا الأول هو كيف نقدم شيئاً جديداً ومميزاً يجذب القارئ/ النخبة الذي كنا نسعى للوصول إليه. وكانت فكرة «مكاشفات» هي المفتاح لذلك التميز الجاذب. ولم أتردد لحظة واحدة في قبول الفكرة وتشجيع صاحبها على تنفيذها بلا تحفظ؛ لأنني كنت متأكداً من أن صاحب الفكرة سيصيب قدراً من النجاح، كما كنت واثقاً من أنّ صاحبها سينفذها بتمكّن معرفي واحترافية مهنية.

وهكذا كان، نجحت الفكرة ونجح صاحبها في لفت الأنظار إليها. ولست مبالغاً إذا قلت إنّ «مكاشفات» كانت الحدث الأبرز على الساحة الصحفية السعودية خلال عام ١٤٢١هـ بما أثارته من اهتمام جاد وجدل لذيذ في أوساط النخبة المثقفة بشتى تياراتها واتجاهاتها. وكان عبدالعزيز قاسم الاسم الجديد الذي فاجأ الكثيرين بما قدمه من عمل صحفي مميز وغير متوقع.

ويعود نجاح «مكاشفات» وصاحبها إلى عوامل عدة؛ فهي لم تكن مجرد مقابلات صحفية تقليدية. إنّها - بحقّ - فنّ جديد في الحقل الصحافي تتقاطع فيه أسلوب المقابلة مع أسلوب المواجهة، ويتداخل فيه خطاب المحاورة مع خطاب المحاكمة، وكان هذا الفنّ الجديد يتطلب من صاحبه جهداً كبيراً في إعداد الأسئلة والمحاور، وفي رصد مسيرة الشخصية ودراسة أفكاره والاتصال بمؤيديه ومعارضيه على حدّ سواء. كما كان يتطلب أيضاً مهارة فائقة في القدرة على المناورة والاستدراج، وربما الاستفزاز، للوصول إلى المعلومات واستخراج الحقائق. وقد أجاد أبو أسامة كل ذلك بشهادة كل الذين حاورهم

وورطهم في مكاشفاته الجريئة التي أفصحوا فيها عن أشياء وآراء لم يكونوا ليفصحوا بها لغيره. ولم يكن هدف هذه المكاشفات مجرد إثارة «مناوشات» فكرية لإحداث «فرقعة» إعلامية فحسب؛ بل كان الهدف البعيد منها رصد وتسجيل ملامح مرحلة فكرية مهمة في تأريخ الحركة الثقافية في المملكة العربية السعودية. وهي مرحلة نحسب أنها لم تحظ حتى الآن باهتمام مؤرخي الحركة الفكرية. ومن هنا جاء اختيار الشخصيات والرموز الذين كاشفهم عبدالعزيز بدقة بالغة ليمثلوا ألوان الطيف الفكري في بلادنا. وثمة عامل ثالث للنجاح يكمن في أن «مكاشفات» لم تكن مجرّد محاورات عادية يمرّ عليها القارئ مرور الكرام، فيقرأها على عجل أو يطالعها في جلسة شاي ثم يلقي بها جانباً؛ بل هي في الحقيقة - حوارات عميقة - ومحاكمات مثيرة غنية بالمعلومات الجديدة، وزاخرة بالآراء الجدلية؛ ولذلك فيه تستفز العقول وتستثير دواعي التفكير؛ موافقة أو احتلافاً، قبولاً أو رفضاً؛ ولذلك كانت ردود الأفعال على «مكاشفات» كبيرة في حجمها، ومتباينة في اتجاهاتها.

لقد كانت «مكاشفات» حديث المجالس الثقافية أخذاً ورداً، وكانت حافزاً لجملة واسعة من الردود الساخنة نشرتها «البلاد - الجمعة» على نحو غير مسبوق في صحافتنا المحلية. وكل هذا دليل واضح على النجاح الذي أسعدنا جميعاً.

إن هذا العمل الصحفي المميز الذي قدمه عبدالعزيز قاسم أكد لنا أمراً بالغ الأهمية والدلالة، وهو مدى حاجتنا إلى الحوار الراقي الذي كاد يغيب تماماً عن حياتنا الفكرية والثقافية والسياسية بصورة مفزعة، كما كشف لنا عن مدى تعطش المجتمع، أو نخبته الفكرية بالتحديد، إلى مثل هذا الحوار واستعداده له، مما يبدّد الكثير من المخاوف التي تعيقنا عن الإقدام نحو حوار فكري واجتماعي واسع نناقش من خلاله قضايانا بمسؤولية عالية.

ولا بدّ، لكي يحقق هذا الحوار الراقي غايته، أن ينبع من اقتناع تام بأنه السبيل الوحيد والمضمون لصوغ منظومة ثقافية سعودية متميزة ترتكز على أسس راسخة من مقومات هويتنا وثوابتنا الفكرية من جهة، وتتفاعل مع معطيات الثقافات المعاصرة ومنجزاتها الحضارية من جهة أخرى.

ولن ينجح هذا الحوار الراقي إلا إذا استلهم قيم حضارتنا العربية الإسلامية في عصور ازدهارها من احترام التعددية، والترحيب بالرأي الآخر، ومقارعة الحجة بالحجة، وإفساح الصدور للاختلاف دون أن يفسد للود قضية، وهذا هو الحوار المطلوب بإلحاح؛ ونحن - بالتأكيد - بحاجة إليه الآن أكثر من أي وقت مضى؛ لتجنيب مجتمعنا المزيد من مخاطر الاحتقان والتصارع الفكري والتشرذم الثقافي الذي لم نجن منه سوى الخسران!

ويكفي مشروع «مكاشفات» أنّه يضيء لنا شمعة في طريق ذلك الحوار المطلوب، ويفتح لنا نافذة أمل في جدار الصمت الذي يخيّم على الساحة الفكرية والثقافية منذ وقت طويل. إنه مشروع صغير في حجمه يقول لنا بصوت شجاع: تعالوا نكسر حاجز الصمت. تعالوا إلى ساحة الحوار الراقي ليستمع بعضنا إلى بعض دون رهبة أو وصاية، وليفهم بعضنا بعضاً بكل صدق ومحبة.

جدة - ٣٠ رمضان ١٤٢٢ هـ.